كيف يكمن الرفع من مردودية دور الشباب عبر التدبير المفوض؟

شكير مازيغ (المغرب)

تنطلق هذه الدراسة، من اعتبار أن الفضاءات الثقافية والفنية، تنتج الرموز والقيم، التي إذا ما توفرت لها الشروط المناسبة، فإنها تسهم بمقدار كبير في معالجة الأمراض الاجتماعية من قبيل الجريمة و التطرف. . . كما تساهم في الرفع من التماسك المجتمعي، والنهوض بمستوى التحضر. من هنا تأتي أهمية إبراز مظاهر العجز، الذي تعاني منه هذه الفضاءات، وذلك برصد واقعها ومعطياتها، وتشخيص طرق إدارتها، ومدى تأثيرها على الناشئة والشباب بشكل خاص، وذلك من خلال:

- رصد واقع حال بعض هذه الفضاءات، وإبراز دورها في إدماج الشباب، وطرق عملها وتسييرها، ومظاهر الخصاص الذي تعاني منه.
- رصد الانعكاسات الاقتصادية الناجمة عن نمط الحكامة المتبع في هذه المنشآت. ويتعلق الأمر بتقدير خصاص الربح الناتج عن سياسة التدبير الحالية.

سنبين في هذه الورقة أهمية تطوير المنشآت الفنية و الثقافية و الارتقاء بها إلى نظام تسيير أكثر نجاعة. لكن و نظرا لتنوع المنشآت الفنية و الثقافية و صعوبة الإحاطة بها كلها، سنركز في ورقتنا هذه على دور الشباب و ذلك زيادة على كونها منشأة نموذجية و متعددة الوسائط (رياضة، مسرح، رقص، قراءة، نادي سينما. . .) فإنها مؤسسة يمكن الرهان عليها في خدمة إستراتيجية تربوية ثقافية لمجتمعنا المغربي، باعتبارها تقوم بأدوار مهمة في عملية التنشئة على المواطنة، ومؤسسة شعبية تتواجد بالأحياء الشعبية، وتتردد عليها فئات من الطبقة الفقيرة والمتوسطة كما يضمن مكان آمن لتلاقي الشباب؛ والتنشيط من أجل الشباب، وتحقيق الحماية من الأمراض الاجتماعية.

أهمية الإشكالية

عرفت الساحة الثقافية المغربي في العقدين الأخيرين حراكا منقطع النظير، تمثل في حركة "نايضة" الحضرية و التي شكلت المبادرة الفردية الشبابية محركها الوحيد، في غياب تام للدعم الرسمي بل و تحت وطأة رقابة وصلت في بعض الأحيان إلى الاعتقال. بدأت أول إرهاصات هذا الحراك قبيل عام 1999 الذي صادف نشأة جمعية "التربية الفنية و الثقافية EAC" و إطلاق مهرجانها "لبولفار" الذي يعنا بالثقافة التح__أرضية "underground". لتنطلق بالفعل كما تؤكد ذلك دومينيك كوبي عالمة الاجتماع اللغوي و المتتبعة للحقل الفني والثقافي المغربي، بعد الأحداث

الإرهابية ل16 ماي 2003. مشيرتا بذلك إلى أن الحركة كانت ردة فعل عفوية على التطرف. و بذلك يكون الشباب المغربي و البيضاوي خصوصا قد برهن عن حسن تقدير و يقظة كان لوسائل الاتصال الحديث فضل كبير في انتشارها بين مكونات المجتمع بسرعة فاجأت السلطات الرسمية للبلاد. فقد تبين فيما بعد أن التطورات السريعة، التقنية والاجتماعية والثقافية، تتجاوز، في كثير من الأحيان، انتباه الفاعلين السياسيين و الاجتماعيين. وضع جعل الدولة تتخذ ردة فعل سلبية من هذا الحراك مخافة أن تتجاوزها الأحداث. مما أخر كثيرا وثيرة نمو هذا القطاع. اليوم و رغم انتباه السلطات للأهمية التي تكتسيها الثقافة في التنمية و التصدي للأمراض المجتمعية، إلى أن السياسات العمومية لازالت بطيئة بالمقارنة مع التسارع الذي يعرفه الحقل الفني و الثقافي. و هذا ما يندر بعودة التطرف بين الشباب خاصة، حيث أن استمرار حالة العجز التي تعرفها السلطات العمومية على استنبات قيم الثقافة الحديثة في وقت مبكر، وتراجع أدوار العائلة، والمدرسة في القيام بدور حاسم في عملية تنشئة الأطفال والشباب، والفراغ الثقافي المهول الذي تعاني منه شرائح واسعة من الشباب المغربي... جعل منهم عرضة لكل التأثيرات السلبية ومادة قابلة للتوظيف في اتجاهات مختلف أنواع العنف والانحراف والتطرف. و لعل عدد الشباب المغاربة المجندين في صفوف «داعش» خير مؤشر. فالملاحظ أن «داعش» انتبهت إلى أهمية الفن و الثقافة في استقطاب الشباب و بدأت في استعمال تقنيات التواصل الجديدة و إنتاج أفلام دعائية و مقاطع موسيقية فيها من الإبداع الشيء الكثير، و ذلك بفضل الطاقات الشبابية التي تتوفر عليها الشركات الخاصة و التي يسيرها شباب تلقو تكوينهم في كليات الاقتصاد و التسيير و مدارس الفنون الجميلة الغربية. في حين أن المعطيات المتعلقة بالتجهيزات الثقافية، تبين أن أنشطتها روتينية، وتوكل مسؤولية تسييرها إلى مديرين لم يتم تأهيلهم للإشراف على العمل الثقافي، سواء على مستوى التخصص، والتخطيط، والتنفيذ، أو الاحترافية في التواصل، وطرق جذب الجمهور، والاستمرارية في خلق اهتمام الناس بالمضامين الثقافية والفنية. لذلك، يلاحظ أنه في كل مدن المغرب، توجد أبنية من مختلف الأحجام والأشكال، خصصت لدور الشباب والخزانات، و"المراكز الثقافية"، غير أنها تخضع لمنطق إداري عمودي، لدرجة لا يفرق معها من يرتادها بين اعتبارها إدارات أو أماكن عيش.

نتائج هذه الوضعية :

ورغم الأهمية التي تكتسيها هذه المؤسسة في بناء الشخصية المغربي إلى أن عددها لم يتجاوز إلى حد الساعة 443 دار كما أن حالتها لا تليق بالمهمة الموكولة إليها، ففي دراسة همت عينة من 276 دار شباب بالمغرب تأكد أن 150 مؤسسة فقط في حالة صالحة للعمل، و 96 مؤسسة في حاجة إلى إصلاحات متعددة، في حين تستوجب 30 مؤسسة أخرى الإغلاق نظرا لعدم صلاحيتها لاستقبال أي نشاط. و هذا ما يحد من جاذبيتها حيت قدرت إحصائيات وزارة الشباب عدد مرتاديها إلى 6000000 مرتاد في السنة أي 54 في اليوم. عدد ضعيف خصوصا إذا علمنا أنه يوجد أكثر من 500 ألف فرد لكل دار شباب، مع أن مساحتها لا تتجاوز 150 إلى 200 متر مربع في أحسن الظروف. هذا و رغم الخصاص الكبير فقد لوحظ فقدان اهتمام من لذن الفاعلين السياسيين بهذه المؤسسة، حيث تبين أن أكبر نسبة بناء دور الشباب، تحققت خلال سنوات السبعينات، والنصف الأول من الثمانينات، تلتها فترة ركود منذ سنة 1985 أربع دور شباب فقط و 1986 دار شباب واحدة، ثم كرست سنوات التسعينات غياب الاهتمام الرسمي بدور الشباب، ثم فترة انتعاش نسبي في بداية الألفية الثالثة 23 دار شباب سنة 2004 ويبرز الرسم التالي توزيع دور الشباب حسب الجهة المالكة:

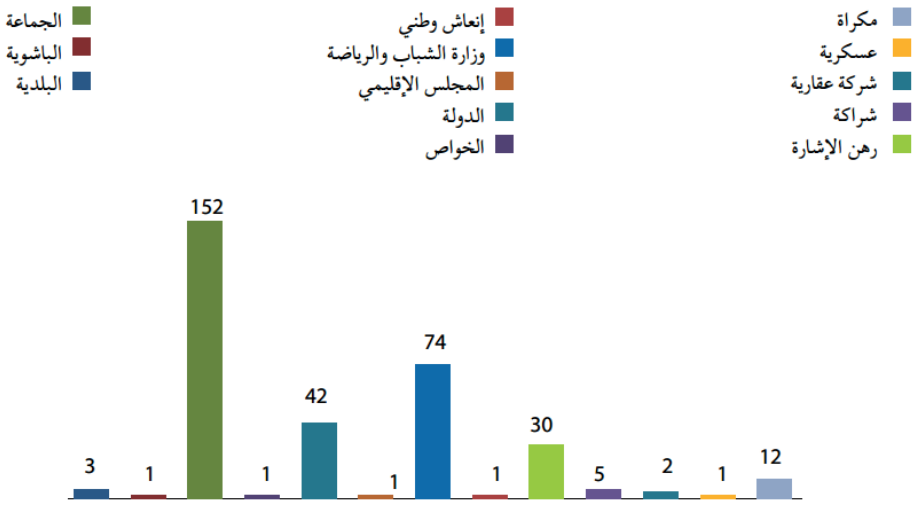

و يبين الرسم استمرار هيمنة القطاع العام على هذه الشبكة بيد أن دار الشباب المغربية، تعيش زمنا مختلفا عن زمن السبعينيات والثمانينات الذي كانت خلاله دور الشباب تعتبر الملاذ الأوحد، إلى جانب حرم الجامعات بالنسبة للطلبة وعموم المثقفين. إن دور الشباب اليوم، تعيش لحظة أخرى ازدهرت فيها هياكل المجتمع المدني، وصارت فيها الكثير من الجمعيات في غنى عن مقرات دور الشباب، بسبب توفرها على مقرات وإمكانيات مادية هامة، وظهرت فيه بدائل أخرى وأصوات منافسة أخرى تستعمل آليات استقطاب جديدة .

تكلفة هذه الوضعية : للأسف لا توجد أي دراسة حول رقم معاملات قطاع «الصناعات الإبداعية» في المغرب اللهم تقرير منظمة اليونيسكو الذي أعتمد على نتائج الاستطلاع الذي قامت به المندوبية السامية للتخطيط. لذلك يصعب تقدير خصاص الربح الذي يتكبده الاقتصاد المغرب جراء سوء تدبير هذا القطاع. و يبرز هذا الاستطلاع أن نفقات الأسر على التعليم و الثقافة و الترفيه مجتمعين، لا يتجاوز في أحسن الأحوال معدل 167 درهم. أي 34،11 درهم للفرد في الشهر. بينما معدل الإنفاق على الثقافة و التعليم في الشقيقة تونس يساوي 9.48 دينار أي 47.63 درهم و إذا أخذنا بعين الاعتبار العادات الشرائية للمغاربة التي تجنح إلى إنفاق أغلب هذه الميزانية في التعليم فإننا نستخلص غياب سوق ثقافي حقيقية. مما يدفعنا إلى الاستنتاج أن خصاص الربح في قطاع الصناعات الإبداعية يقارب 100%. و إذا علمنا أن الطبقة المتوسطة عرفت نوما ملحوظا حيث أصبحت تشكل 44% و أن دخلها عرف ارتفاعا ملحوظا ليتراوح بين 2800 و 6800 و باعتبار قانون «أنكل» الإحصائي فإن عادات شرائها مؤهل للإنفاق على القطاع الثالث.

الحلول التي تم تقديمها

تعتبر الولاية التشريعية 2002-2007 أكثر فترات دور الشباب نشاطا منذ عصرها الذهبي في السبعينات و بداية الثمانينات. حيث تم بناء 23 دار شباب سنة 2004 و إطلاق مشاريع : الرياضة للجميع، العطلة للجميع، زمن الكتاب، و لعل أهم مشروع أطلق في هذه الفترة هي الجامعة الشعبية.

العقبات التي واجهت الإصلاحات

- ضعف الميزانية المرصودة للوزارة الوصية
- غياب سياسة موجهة خصيصا لدور الشباب و الاقتصار على مبادرات فردية سرعان ما تخفت بمجرد غياب أصحابها.

- غياب إطار قانوني يواكب تطور واقع و محيط دور الشباب
- تعدد المتدخلين و الفاعلين
- المركزية البيروقراطية في تدبير المنشآت و تنظيم المجال الترابي
- استبعاد الفاعلين الميدانيين في جميع مراحل صياغة المشاريع
- و لعل العقلية السائدة في مجتمع الإداريين المكلفين بتسيير هذه الدور أهم عائق

دراسة مقارناتية (المحترف الثقافي للمسالخ القديمة)

تعتبر المسالخ القديمة معلمة تاريخية حيث سجلت بموجب الظهير رقم 1.301.03 في لائحة التراث التاريخي و ذلك لهندستها التي أعلنت آن داك (1922) ولادة طراز جديد في التصميم المعماري و الذي عرف في ما بعد بالأرديكو و النيو موريسك. هذه المسالخ استمرت في الخدمة إلى حدود سنة 2000 و جراء ضغوط المجتمع المدني و بمبادرة من مجلس المدينة تحولت إلى فضاء ثقافي في سنة 2008 ليفوض تسييرها في سنة 2009 لتجمع ثقافي يضم مجموعة من الجمعيات الثقافية و الفنية، و الذي سيأسس المحترف الثقافي للمسالخ القديمة. بعدها أصبح المحترف فضاء مخصص للإبداع الفني الحضري، و التكوين، و نشر الفنون بمختلف أشكالها (الفنون الحية، الفنون المسجلة، فنون الشارع، الفنون البلاستيكية، و الفنون التطبيقية).

و مع قلة الدعم الحكومي للمحترف فقد استطاع مند تأسيسه إلى غاية سنة 2011 أن يستقبل 200 فنان، و يجذب أكثر من 400000 زائر من جميع الفئات (سكان الأحياء المجاورة، طلبة، فنانون محترفون و آخرون هواة من جميع أنحاء العالم) في سنة 2011 فقط استقبل المحترف أكثر من 25000 زائر، بمعدل 68 زائر في اليوم أي أكثر ب 20% من معدل دور الشباب، و ذلك رغم عدم توصله بمعونات مجلس المدينة. وإن استطاع المحترف تحقيق هذه الأرقام فذلك لأنه استطاع بعد سنتين فقط من العمل من تكوين شبكة شركاء داخليين و خارجيين تجاوز عددهم في نفس السنة21 شريكا. كما يستفيد المحترف من عائد تسخير الفضاء لشركات الإنتاج التي تصور به عدة أفلام و الإشهارات...

الإجراءات المقترحة لمعالجة هذا المشكل

- تحويل دور الشباب إلى مقاولات ثقافية يفوض تدبيرها لمجلس إدارة متكون من متخصصين اقتصاديين ومن الفاعلين الثقافيين والرياضيين والاجتماعيين.
- تعديل الشكل المعماري للبنايات ليصير أكثر حفاوة و أكثر ملاءمة لمتطلبات الأنشطة الشبابية.
- تجهيزها بوسائل الاتصال الحديثة.
- صياغة مساطر مرنة و شفافة لاستغلال مرافق و أجهزة هذه الدور.
- تعديل القانون المنظم لدور الشباب بما يلائم المستجدات.
- الجهات المعنية
- وزارة الشبيبة والرياضة
- الجماعات المحلية
- الإستراتيجية الوطنية لإدماج الشباب

المراجع

- تقرير المحترف
- ميثاق المحترف الثقافي للمسالخ القديمة
- تقرير المجلس الاقتصادي و الاجتماعي و البيئي أماكـــن العيـــش والفعـــل الثقافـــي
- الحالة العامة للثقافة
- دار الشباب وأسئلة المجتمع المدني بالمغرب
- مجلة الحوار المتمدن
- منشورات الشعلة
- الملخص التنفيذي لمشروع تقرير حول إدماج الشباب عن طريق الثقافة
- casablanca.madeinmedina.com
- www.ahewar.org
- lavieeco.com
- alyaoum24.com